دراسات

قافلة حجاج شرقي الأردن كما رآها الرحالة خلال القرن الثاني عشر الهجري الثامن عشر الميلادي

الدكتور
جمعان عبد الله الشهراني

د. جمعان عبد الله الشهراني
أستاذ مساعد سابقًا - جامعة بيشة - السعودية
موفَد في إدارة وسياسات تطوير المناهج - البحرين
aim1921@gmail.com

Received :1 / 6 / 2025
Revised: 20 / 6 / 2025
Accepted: 25 / 6 / 2025
Published: 1 / 8 / 2025

قافلة حجاج شرقي الأردن كما رآها الرحالة

خلال القرن الثاني عشر الهجري الثامن عشر الميلادي

مقدمة

لم يكن الحج في الدولة العثمانية مجرد قافلة عادية تحمل الحجيج من دمشق الى الحج وحسب، وانما تشكل أيضاً موضوعاً تكمن أهميته في الكشف عن النواحي الدينية والاقتصادية والاجتماعية التي أثرت في علاقة الحاكم بالمحكوم، وفي مستوى السكان على اختلاف أدوارهم ومراكزهم السياسية وفعالياتهم الاقتصادية، ومن هذا الطرح يبرز التساؤل: لماذا انصب ذلك الاهتمام من الدولة على تنظيم قافلة الحج الشامي وحمايتها واظهارها بذلك المظهر المهيب، الذي لا يخلو من الطابع العسكري بانتقالها من دمشق الى المدينة ومكة؟ الأمر الذي يدعو الى الكشف عن مدى هذا الاهتمام ومساحة ذلك التأثير للقافلة بمرورها بشكل طولاتي من الشمال الى الجنوب في شرقي الأردن في الفترة العثمانية. حيث أدركت الدولة العثمانية أهمية علاقتها مع العرب وشرافة مكة، واظهار الطابع الإسلامي الذي اقتضى منها تأمين سلامة قوافل الحج الأربعة: الشامية، والمصرية والعراقية واليمنية.

أهمية الدراسة ومكوناتها:

ومن هنا تأتي أهمية دراسة الحج الشامي (وفيه حجاج شرق الأردن) والإطارين الجغرافي والسكاني لقافلة الحج وظروف تبديل قيادة القافلة، مع التعرض للاستعداد للقافلة في تنظيمها ومواكبها وتمويلها من خلال احتفالاتها المهيبة المظهر.

ولعل من المهم فهم الآثار العامة لقافلة الحج في شرقي الأردن وخاصة في التقسيمات الادارية العثمانية، ومظاهر النشاط الاقتصادي في المنطقة والذي عززته القوافل التجارية من الخليل والقدس وغزة، ودور البدو في هذا المجال، وما كانت تدره الأرض من خيرات مثلت سلعاً تجارية مهمة في الاستيراد والتصدير. وعلى ذلك تتكون هذه الدراسة من:

- مدخل فيه عرض تحليلي لظاهرة الحج من خلال حقول المعرفة الموجودة في كتابات الرحالة التي اعتمدت عليها الدراسة من حيث أهمية معلوماتها التي أفادت منها.
- شرقي الأردن في التقسيمات الإدارية العثمانية من عام ١٥١٦ – ١٩١٨م.
- خط القافلة في شرقي الأردن خلال القرن الثاني عشر الهجري الثامن عشر الميلادي.
- أهم الطرق التي كانت سلكها حجاج شرقي الأردن بين الحرمين الشريفين هي:
- الدور الذي لعبه البدو في نجاح القافلة أو فشلها
- مردود القافلة على المنطقة من الناحية الاقتصادية والاجتماعية

- عرض تحليلي لظاهرة الحج من خلال حقول المعرفة الموجودة في كتابات الرحالة التي اعتمدت عليها الدراسة من حيث أهمية معلوماتها التي أفادت منها:

تبين من خلال كتب الرحلات أنه كان هناك اهتمام كبير بالحجاز من جانب الدولة العثمانية خلال القرن ١٢هـ/١٨م، وعدد من السمات التي حافظ عليها كل السلاطين العثمانيين؛ فقد كان الحجاز وما يحويه من أماكن إسلامية مقدسة تابعا للدولة العثمانية، مما أضفى عليه مركزا دينيا مرموقا في جميع أرجاء العالم الإسلامي. وقد أعفت الدولة العثمانية منطقة الحجاز من آداء الضرائب، بل أوقفوا خراج على الحرمين الشريفين. (١)

ولم يكن الاهتمام وقفا على الأماكن، بل تعدّاها إلى المواطن، فقد أُعفِي سكان الحجاز من التجنيد، وأبقت الدولة على الحكم الذاتي المتمثل في نظام الشرافة؛ وكل ما كانت تفعله أن ترسل فرمانا تحدد فيه إمكانات واختصاصات وواجبات الشريف الجديد عند تعيينه، وتوصيته ببعض الوصايا التي كانت تنصب في أغلبها على حماية الحجاج في أموالهم وأرواحهم، وأن يقسم بالعدل الصرة الهمايونية بين الأهالي (٢).

ويفهم من رحالة القرن ١٢هـ/١٨م أن الشيء الذي أولته الدولة العثمانية جل اهتمامها، هو قوافل الحج والإشراف المباشر والفعلي على الحج، واعتبرت هذا العمل واجبا يقع على عاتقها، باعتباره الركن الخامس من أركان الإسلام، وأن عليها تيسير الحج أمام الراغبين فيه، فأنشأت قوافل الحج، واهتمت بالطرق؛ فأقامت الحصون، وحفرت الآبار على طول طرق الحج، وشجعت على إقامة الخانات، وأقامت المخافر، وكانت تشرف على قوافل الحج الرئيسية التي كانت تخرج من أنحاء الدولة كافة في مواعيد محددة كل عام، وتضع لها قوة تحرسها، يقودها أحد كبار العسكريين، الذي كان يسمى" سَرْدَارُ الحج ."وكان على رأس كل قافلة أمير للحج، وكثيرا ما كان أمير الحج يتولى قيادة الجيش المرافق للقافلة، وخاصة قافلة الحج الشامي (٣).

وبوصف الرحالة لقافلة الحج الشامي نجد أنها عدت من أهم قوافل الحج في القرن ١٢هـ/١٨م وكانت تضم حجاج بلاد الشام -وشرقي الأردن- والجزيرة وأذربيجان والقوقاز والقرم والأناضول والبلقان، وحجاج إستانبول نفسها، وكان عددها يتراوح ما

بين ثلاثين وخمسين ألفًا .وقد كان السلطان العثماني يشرف بنفسه على ترتيب وإعداد هذه القافلة وخروجها من مدينة إستانبول. وكانت القافلة تقطع الطريق التجاري حتى تصل إلى دمشق، ومنها إلى أراضي الموآبين القدماء، ومن بلاد معن عبر صحراء مزريب إلى مدائن صالح حتى تصل القافلة إلى المدينة المنورة (٤).

وكان السلطان العثماني يصدر أوامره إلى الولاة لتسهيل مهمة مرور القافلة، وأن يتولوا مهام حراستها حتى تصل إلى حدود الولاية المجاورة، فيتولى الوالي الجديد استقبالها وتأمين مسيرتها عبر ولايته، حتى تصل سالمة إلى نهاية ولايته وهكذا.

وقد كانت القافلة وعلى رأسها أمير الحج تعبر هذه الولايات وسط حفاوة واهتمام بالغ، ويتسلم أمير الحج بصك شرعي أموال الأوقاف والهدايا المرسلة إلى أهالي الحرمين الشريفين، وإلى الحرمين الشريفين ذاتهما، من بسط وتحَف ومصابيح وشمعدانات ومواد غذائية وما شابه ذلك (٥).

- شرقي الأردن في التقسيمات الإدارية العثمانية من عام ١٥١٦ – ١٩١٨م

خضع الأردن للحكم العثماني من ١٥١٦- ١٩١٨م ى أي أربعة قرون . فقد استولى العثمانيون على إيران وشمالي العراق بعد انتصارهم على الصفويين في معركة جالديران عام ١٥١٤م، وانتصروا على المماليك في معركة "مرج دابق" عام ١٥١٦م فسيطر العثمانيون على بلاد الشام بقيادة السلطان سليم الأول، وقتل السلطان المملوكي قانصوه الغوري وأُسر الخليفة العباسي الخامس والخمسين. وبعد معركة "الريدانية" عام ١٥١٧م دخل العثمانيون مصر فخضع المشرق العربي للعثمانيين، ووضعت البلاد العربية تحت الحكم العثماني المباشر وقسمت الدولة العثمانية بلاد الشام إلى ثلاث سناجق أو ولايات هي؛ دمشق ، وحلب ، وطرابلس . وكانت شرقي الأردن تتبع لدمشق وقد حكم العثمانيون شرقي الأردن اسميا، فلم تهتم الدولة إلا بقافلة الحج الشامي . وقد حاول زعيم منطقة لواء عجلون الذي شكل عام ١٥١٧م الأمير البدوي

محمد سعيد الغزاوي حاول مقاومة السيطرة العثمانية على البلاد وتمرد عليها، وقد تمكنت الدولة من إحباط تمرد الغزاوي إلا أنها أبقت على حكم عائلة الغزاوي في منطقة عجلون . وقد اتبعت الدولة سنجق عجلون مباشرة لاستانبول منذ عام ١٥٩١م. في العام الذي استبدلت فيه السناجق بالأيالات فكانت شرقي الأردن تتبع لايالة شام شريف ، وفي القرن السابع عشر تنازعت عجلون والكرك الأمير فخر الدين المعني واحمد باشا الحافظ والي الشام ، واثنين من آل الغزاوي هما الأخوين حمدان بن قانصوه الغزاوي وشقيقه بشير الغزاوي ، فعينت الحكومة العثمانية الأمير البدوي فروخ بن عبد الله عليها. أما في القرن الثامن عشر فقد خضعت اربد وعجلون للإمارة الزيدانية في قرية "تبنة" من عام ١٧٦٠- ١٧٧٥م تحت حكم احمد ظاهر عمر الزيداني ، ثم سيطر على البلاد احمد باشا الجزار حاكم عكا من ١٧٧٦- ١٨٠٤م[٦] ونالت شرقي الأردن اهتمام السلاطين العثمانيين, وكذلك القافلة الشامية، حيث شكّل عجز أي قافلة حج عن الوصول إلى مكة المكرمة والعودة بأمان مسؤولية سياسية ودينية للسلطان العثماني، والشيء ذاته يعمم على الهجمات البدوية وحالات العصيان في الأماكن المقدسة، وبمعنى آخر كانت هذه الحوادث تنذر بنشوب أزمة شرعية، فقد كان إعمار المقدسات ورعايتها يعزز من الشرعية.[٧]

وأصبحت الحكومة العثمانية تكلّف بعض حكّام الصناجق في ولاية دمشق مثل أمراء عجلون أو غزة أو اللجون أو القدس بأمرة الحج وتحميله مسؤولية توفير الإمدادات الغذائية والدواب وتوفير الأمن والحماية لقافلة حجاج شرق الأردن وقافلة الشام.

- خط القافلة في شرقي الأردن خلال القرن الثاني عشر الهجري الثامن عشر الميلادي

كان حجاج شرقي الأردن يسيرون مع قافلة الحج الشامي، وكانت قافلة الشام ومعها حجاج شرقي الأردن تتحرك في أغلب المواسم في الخامس عشر من شوال تحت رئاسة أمير الحج، وكان يتولاها في العادة والي سوريا. وقبل التحرك يجري احتفال

كبير ينظمه قائد الجيش الخامس، وبعد القيام بالتشريفات المعهودة في مثل هذه الأمور تخرج القافلة من الشام من" قبة الحاج"، التي كانت تعد نقطة البدء للقافلة، ومنها إلى الكسوة حيث ينضم إليها الحجاج الذين تجمعوا في" مزريب"، ثم تتجه مجتمعة إلى المراحل التالية(٨).

ومن المناطق التي تمر بها قافلة حجاج شرقي الأردن عبر هذا الطريق منتزه مزريب في حوران، وبجوار عين مزريب أمر السلطان سليم الأول ببناء قلعة - مازالت أطلالها باقية حتى الآن - لحماية قافلة الحج، ثم الزرقاء فالبلقاء، ثم القطرنة حيث القلعة التي شيدها سليمان القانوني بجوار البركة التي أمر بإعادة تطهيرها بعد أن كانت قد تساوت مع الأرض. ومن القطرنة تتابع القافلة سيرها حتى الكرك، ثم عنيزة، فقلعة معان. وهذه المنطقة تسجل كتب التاريخ أنها كانت مقر إقامة بني أمية، وأمر السلطان سليمان القانوني بإقامة قلعة وحفر بئر فيها. ومن معان إلى ظهر العقبة نحو "ذات الحج"، وفي ذات الحج أو حجر هذه أمر القانوني بإقامة قلعة لحماية القوافل من غارات البدو والأعراب، وتشتهر بتمورها وثمارها الجيدة. ومنها إلى" قاع البسيط " فتبوك ثم أخيضر التي تقع في منتصف المسافة بين مكة والشام. (٩)

وقد كلف السلطان سليمان القانوني عند جلوسه على العرش سنة ٩٢٦هـ - ١٥٢٠م واليه على الشام مصطفى باشا ببناء قلعة أخيضر، وبعدها تصل القوافل إلى بركة المعظم، ثم جبل الطاق الذي عقرت فيه ناقة النبي صالح عليه وعلى نبينا - الصلاة والسلام -. ثم مبرك الناقة، ثم قرى صالح، ثم ديار ثمود، وهي تلك المنازل التي نحتت في الجبال، وفيها مسجد النبي صالح - عليه السلام -، ومنها إلى العلا التي تبعد عن المدينة المنورة بست مراحل، وهي من ملحقات المدينة المنورة؛ وأمر السلطان القانوني بتجديد قلعتها وحصنها لحمايتها من غارات الأعراب. ومنها إلى شعب النعام ومنزل فحلتين، ثم وادي القرى الذي تكثر فيه المياه والغابات، وأبيار علي - رضى الله عنه -، وفيها يحرم الحجيج جميعًا، ومنها تمر القوافل بقبور الشهداء، ثم الجديدة وقاع

البرو وبلاد طارق وعقبة السويق؛ ومنها إلى عسفان حيث الآبار النبوية المأثورة، وبعدها تدخل القوافل إلى مكة المكرمة في أوائل ذي الحجة من كل عام، بعد أن تكون قد قطعت المسافة من المدينة في مائة وست ساعات. (١٠)

لقد كانت منطقة عقبة الحجاز إحدى محطات طريق الحج الشامي التي كان يعبرها الحجاج إلى الديار المقدسة؛ إذ كان هناك عدة طرق للوصول إلى الأماكن المقدسة من الشام ومنها الطريق الداخلي المعروف ب" التبوكي "وهذا الطريق يتبع الطريق التجاري التقليدي بين بلاد الشام والحجاز وتشكل مدينة تبوك إحدى منازل هذا الطريق الرئيسة (١١).

- أهم الطرق التي سلكها حجاج شرقي الأردن بين الحرمين الشريفين هي:

سلك حجاج شرقي الأردن للوصول إلى مكة عدة طرق صحبة قافلة الحج الشامي، ومنها الطريق السلطاني: أي الطريق الرئيسي، وكان على حجاج القافلة التي تسلك هذا الطريق أن يتجمعوا عند وادي فاطمة بالقرب من مكة المكرمة للاتجاه إلى المدينة المنورة. ويتزود الحجاج فيها بما يلزمهم، ثم يتجهون إلى بئر عسفان، وتسلك طريقها حتى تصل إلى رابغ التي تفترق عندها الطرق، وإن كان أكثرها استعمالا هو الطريق السلطاني (١٢)..

كان الحمّالة هم الذين يحددون أماكن التوقف، وكانوا يفضلون تلك التي تضم آبارا للتزود بالمياه. وتعودت القوافل أن تدخل المدينة في اليوم السادس من خروجها من رابغ. وهذا الطريق السلطاني كان هو الطريق المعتاد بالنسبة لقوافل الحج وقوافل المحامل. وبالرغم من قلة مياهه فإن مطالعه ومنازله الوعرة كانت شبه معدومة، ولكن كانت تبعد عنه بعض الشيء سلاسل جبلية مكنت بعض عربان البدو من مهاجمة هذه القوافل، مما دفع قوافل الحجاج المسلمين ومواكب التجار إلى أن يسلكوا الطرق المسماة بالطرق الفرعية لعمرانها وعدم خطورتها (١٣).

كذلك سلك حجاج شرقي الأردن الطريق الفرعي :وهو الطريق المؤدي من رابغ إلى المدينة المنورة عن طريق" بريدة ."والذين يودون السفر عن طريق" الطريق الفرعي" يتجمعون عند" المرحلة"، التي تسمى آنذاك" بئر رضوان"، وهي تبعد مسيرة ثنتي عشرة ساعة من رابغ، ويتزودون بالمياه والمؤن، ثم يسلكون الطريق مارين بقرية "أبي ضياعة "و"ريان "و"أم العيال "و"مضيق "و"صمد"، ثم تمر القوافل من المنطقة المنخفضة التي تسمى الغدير التي تتجمع فيها مياه الأمطار فتحولها إلى ما يشبه البحيرة.

علاوة على الطريق الفرعي الثاني الذي سار فيه حجاج شرقي الأردن, أي الطريق المؤدي إلى المدينة المنورة هو طريق غابر، وبالرغم من أن المسافة عبر هذا الطريق كانت تقطع في خمسة أيام من مكة إلى المدينة، فإنه طريق جبلي، كثير المطالع والمنازل، مما جعله صعب المنال بالنسبة للجمال التي غالبا ما تكون محملة بأشياء ثقيلة، وتجعل قطع الطريق مرهقا، كما أن كثرة الجبال تجعله مرتعا لقطاع الطرق والأشقياء، مما يدفع الجمالة إلى الابتعاد عنه وعدم سلوكه، إلا أن قِصَرَه بالنسبة للطريق السلطاني والطريق الفرعي تجعل منه معبرا مطروقا من قبل المشاة، أو من يمتطون صهوة الخيول، أو من قبل فرسان الخيالة والهجانة التابعين لقوة الدولة العثمانية، والمنوط بها حفظ الأمن وحماية مكة المكرمة والمدينة المنورة. وتورد بعض كتب التاريخ أن النبي محمداً - صلى الله عليه وسلم - قد سلك هذا الطريق عند هجرته الميمونة إلى المدينة المنورة(١٤).

وهناك أيضا الطريق الشرقي الذي يربط المدينة المنورة ومكة المكرمة، وهو طريق كبير ومتسع إلى حد ما، وكثيرا ما تسلكه القوافل المترددة بين المدينتين المقدستين، وهو الطريق المفضل عند قوافل المحمل، والقوافل التي كانت تحمل الصرة، وخاصة في المواسم التي كانت تشتد فيها الحرارة، وتزداد فيها حملات الخارجين على القانون، وتسلطهم على الطرق الأخرى(١٥).

وعرف بهذا الاسم لوقوعه على الطرف الشرقي من بلاد الحجاز، وتصل القوافل التي تقطع هذا الطريق إلى مرحلة بئر الليمون بعد مسيرة أربع عشرة ساعة، ثم بئر برود الذي تفضل القوافل الاستراحة عنده، والتزود من مياهه العذبة. وبعد المرور من بضع آبار ومراحل أخرى تصل القوافل إلى" بركة زبيدة"، وهي البركة التي أمرت السيدة زبيدة زوجة هارون الرشيد بتشييدها لتجمع فيها مياه السيول في هذه المنطقة. (١٦)

ومن الطرق الفرعية التي تسلكها القوافل بين المدينة المنورة ومكة المكرمة أيضا طريق ينبع البحر. فينبع البحر تعد مرفأ المدينة المنورة.

والقوافل المتجهة إلى البلدة الطيبة تصل أولا إلى" بئر سعيد "ثم قرية" صفراء"، وعند هذه القرية يلتقي طريق ينبع البحر مع الطريق السلطاني؛ ومن ينبع حتى طيبة الطيبة خمس مراحل سيرا بقوافل الجمال (١٧).

والمعروف أن المرحلة هي مسيرة يوم واحد بالجمال، أي مسيرة سبعة وعشرين ميلا. وتمر القوافل التي تسلك هذا الطريق بقرية بدر المباركة، ويقرأون الفاتحة على أرواح شهداء بدر الكبرى، وهذا الطريق سهل ومستوٍ مما يشجع القوافل على عبوره. (١٨)

- الدور الذي لعبه البدو في نجاح قافلة حجاج شرقي الأردن أو فشلها.

وسيطرت القبائل البدوية على شرقي الأردن في القرن التاسع عشر، وأصبحت شرقي الأردن مرتعا للقبائل البدوية من نجد والحجاز وبادية الشام والعراق وصحراء سيناء. كقبيلة بني صخر، وعباد والسرحان وبني حسن والعدوان والبلقاوية والعجيلي والسردية. فكثيرا ما قدمت عشائر عنزة وشمر من العراق، والشرارات من الحجاز، وكانت عنزة تؤجر جمالها للحجاج من سورية والأردن (١٩). واستقرت بعض العشائر في منطقة البلقاء مثل قبيلة عباد التي كانت في حرب دائمة مع بني صخر حتى منتصف القرن التاسع عشر ثم تحالفت بني صخر وعباد وأصبحوا في حرب دائمة مع

العدوان وأهل السلط وعشائر البلقاوية عامة. كما استقرت عشيرة العدوان التي دخلت في صراع مع بني صخر وحلفائهم عباد، ودخلت العدوان في صراع مع الرولة من عنزة، ومع عشيرة الغنيمات في مادبا، كما استقرت عشائر العمرو والحمايدة والترابين حول الكرك، وكانت قبائل بني حميدة والحجايا والسليط والحويطات تحيط بالطفيلة. إذ كان نفوذ الحويطات يمتد من الكرك حتى المويلح في الحجاز [٢٠]. وكانت الحويطات تأخذ إتاوة من محمل الحج الشامي والمصري، وتقوم بتأجير إبلها إلى الحجاج المصريين، أما الاحيوات والعلاويين والعمران استقروا في العقبة ووادي عربة. وكانت هذه القبائل خاصة بني صخر تأخذ الخاوة من قرى جبل عجلون [٢١].

لقد بنيت الخانات والقلاع على طول طريق الحج الشامي من قبل السلاطين المسلمين لتوفير الأمن في المنطقة ولحماية قوافل الحج والتجارة من غزوات البدو، كما هدفت الحكومة العثمانية من بناء هذه القلاع وإعادة استخدام المعمر منها إلى تشجيع البدو الموجودين في المناطق المجاورة لهذه الخانات على الاستقرار، الأمر الذي أدى إلى توفير مزيد من الأمن لهذه القوافل [22].

ومن جهة أخرى تشير المصادر التاريخية-أحيانًا- إلى خلافات بين السلطة العثمانية والقبائل البدوية التي كانت تسكن شرق الأردن خصوصًا خلال الفترة ما بين القرن السابع عشر والثامن عشر؛ حيث كان يقوم بعض أفراد العائلات البدوية بالإغارة على القوافل المتجهة إلى الجزيرة العربية ونتيجة لذلك، فقد سعى السلاطين العثمانيون إلى حماية قوافلهم من غزوات البدو، واتخذوا إجراءات وقائية ودفاعية وتمثل ذلك في تطوير نظام من التحصينات على طول طريق الحج الشامي، كالقلاع التي بناها السلطان سليمان القانوني، وهي قلعة معان والقطرانة وذات الحج وتبوك كما بنيت قلعة عنيزة - بجنوب الأردن في عام ١٥٧٠ م وبنيت قلعة الحسا من قبل السلطان مصطفى الثالث (١١٧١- ١٧٧٣ م) كما بنيت قلعة فصوعه في منطقة عقبة الحجاز[٢٣].

- مردود القافلة على المنطقة من الناحيتين الاقتصادية والاجتماعية

شكل حجاج شرقي الأردن نفس ما شكلته قافلة الحج الشامي إبان العهد العثماني[٢٤]، وعدت عاملاً رئيسياً من عوامل ازدهار المنطقة ونموها من الناحية الاقتصادية، وتطور بنائها الديمغرافي، إذ إن تجمع أعداد كبيرة من الحجاج سنوياً في محيط المدينة، كان له آثار هامة، ليس فقط بما يحملونه معهم من بضائع ومنتوجات، وتحول تجمعهم إلى مجرد سوق موسمي، بل أن أهمية ذلك كانت تتعاظم مع استقرار عدد من الجماعات الإسلامية في الأحياء الخارجية للمدينة على امتداد الطريق المؤدية إلى جنوب دمشق[٢٥]، ويمكن التأكيد على ذلك من خلال ما يورده ابن كنان الصالحي (ت ١١٥٣هـ/ ١٧٤٠م)، بشأن استقرار عدد كبير من الحجاج الأوزبكستانيين في دمشق سنة ١١١٨هـ/ ١٧٠٦م[٢٦].

لم يكن تأثير القافلة مقصوراً على الناحية السكانية فقط، بل أن تجمع الحجاج من أقاليم شتى، كان يعد سبباً رئيسا في انتعاش أسواق وساحات أخذت تتحول، مع مرور الوقت وفي كل عام، إلى أسواق موسمية كبرى[٢٧]، ويشير السجل الشرعي إلى أن عدد من الحجاج كانوا يحملون معهم منتوجات مختلفة من بلادهم، حتى إذا وصلوا دمشق نهضوا ببيعها، أو عرض جزء منها في أسواق المدينة[٢٨].

ويضاف إلى ذلك، ما كانت توفره القافلة لعدد من أبناء المدينة، من فرص عمل متعددة في خدمة القافلة. إذ إن هناك عدداً من أبناء المدينة ممن ينتظرون موسم القافلة لمرافقتها والقيام بخدماتها للحجاج تحت مظلة متعهدي القافلة، ومن هؤلاء من يعمل في نقل البضائع، وتجهيز الخيول، وسقاية الحجاج[٢٩]، وشد البضائع[٣٠] وطهي الطعام[٣١]، وعكم الجمال[٣٢]، ومراقبة الخيام، وغيرها من الحرف[٣٣]. وقد ارتبطت هذه الطوائف مع بعضها؛ نتيجة لاعتمادها على تدرج الخدمة، وتسلسلها، كما أن مقدار الربح والاستثمار كان مرتبط بطبيعة الحجاج، ومستواهم الاقتصادي، وضمان أمن القافلة وسلامتها[٣٤].

الخاتمة:

بدا واضحا من خلال الدراسة أن الازدهار التجاري لشرقي الأردن خلال النصف الأول من القرن الثاني عشر الهجري/ الثامن عشر الميلادي، ارتبط بعاملين ذاتيين هما: تطور المنتوجات الزراعية في جنوب الشام وتدفقها إلى دمشق، وهذا عامل محلي، وعامل آخر وهو إقليمي، يتمثل بنمو المبادلات التجارية بين شرقي الأردن والأطراف ودمشق وقد كانت قافلة الحج إحدى أركان هذه التجارة.

ساعدت ظروف المنطقة في القرن ١٢هـ/١٨م في تحول الطريق التجاري باتجاه معاكس لطريق حلب أصفهان، وهو طريق مكة - دمشق، كما يمكن إضافة لتلك العوامل الإقليمية وهي اعتبار دمشق نقطة التقاء بين ساحل المتوسط ومراكزه التجارية من جهة، ومحل انتهاء سير القوافل التجارية القادمة من البادية الشرقية والمناطق الجنوبية من جهة أخرى.

ثمة دوراً مهما إزاء نمو الاقتصاد لشرقي الأردن، والذي ساهم في تحقيق نمو عمراني ملحوظ للضواحي الشمالية الشرقية، والجنوبية الغربية ، وهي في خط نموها مرتبطة بالطريق المؤدي إلى شمال حوران وفلسطين والحجاز، ولكن نظرة إلى خارطة الشام التي توضح توسع المدينة خلال القرن الثامن عشر الميلادي، إلى جانب تتبُّع حركة المجتمع من خلال سجلات المحاكم الشرعية العائدة للأحياء الجنوبية والشمالية لدمشق، تُبيّن أن ذلك التوسع لا يمكن إسناده إلى مؤثرات غربية لها علاقة بالنشاط الاقتصادي مع أوروبا عبر جبل لبنان فقط، بل إن التزايد السكاني الذي تزامن مع تلك الفترة، ومع وجود السور المحيط بدمشق، جعل من الصعب أن يكون هناك نمو عمراني داخل السور، كما أن لقافلة الحج الشامي دوراً ملحوظاً في نمو الأجزاء الجنوبية من المدينة وازدهارها.

المراجع

(1) أحمد بن محمد بن ناصر الدرعي, الرحلة الناصرية, رحلة إلى بيت الله الحرام: إحدى رحلاته الأربع للحج عام ١١٢١هـ/١٧٠٩م, عرض وتلخيص حمد الجاسر, مجلة العرب, ج٥, ٦, س١٢ لعام ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م, دار اليمامة- الرياض.

(٢) محمد المكي الناصري" :الدرر المرصعة بأخبار أعيان درعة "تقديم وتحقيق محمد الحبيب النوحي، رسالة ديبلوم الدراسات العليا، كلية الرباط ١٩٨٨ ص: ١٣٤؛ . أحمد البوزيدي "جوانب من الحياة الاجتماعية والاقتصادية بمكة والمدينة من خلال رحلة الحيوني في أواسط القرن ١٣ هـ ١٩م) " مجلة دعوة الحق- وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية, المغرب, , العدد ٣٥٧ ذو القعدة-ذو الحجة ١٤٢١ يناير-فبراير ٢٠٠١م. ص٤٧-٥٨

(٣) محمد بن أحمد الحضيكي" :طبقات الحضيكي "المطبعة العربية (الدار البيضاء) الطبعة: ١, ١٣٥٥هـ، ج١, ص: ٨٥-٨٩

(٤) محمد بن عبدالسلام بن عبدالله الناصري الدرعي المغربي، رحلته الكبرى عام ١١٩٦هـ/١٧٨١م, رحلته الصغرى عام ١٢١١هـ/١٧٩٦م, عرض وتلخيص حمد الجاسر, منشورات دار الرفاعي, الرياض, ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.

(٥) الزياني, الترجمانة الكبرى، في أخبار المعمور برا وبحرا، تحقيق: عبد الكريم الفيلالي. دار المعرفة للنشر والتوزيع. الجديدة. ١٩٩١. م, ص٥٧.

(٦) انظر الأمير أحمد الدمرداشي (كان حيا ١١٧١هـ/١٧٥٧)، كتاب الدرة المصانة، تحقيق، عبد الرحيم عبد الرحمن، المعهد الفرنسي للآثار الشرقية، القاهرة، ص٢١٢، ٢١٦، ٢٢٠، ٢٢٢، ٢٢٥. وعبود الصباغ "مصنف" الروض الزاهر في تاريخ

ظاهر، تحقيق: محمد محافظة وعصام هزايمه، دار الكندي، للنشر، إربد، ١٩٩٩م، ص٣٢-٣٧.

(٧) ثريا فاروقي, حجاج وسلاطين(الحج أيام العثمانيين) ترجمة :أبو بكر أحمد باقادر، منشو رات الجمل والمركز الدولي للخدمات الثقافية، بغداد وبيروت, د.ت, ص١٢٣.

(٨) الزياني, الرحلة, ص٥٤؛ نزار التجديتي ,. الرحلة إلى شرق المتوسط، من خلال الترجمانة الكبرى، لأبي القاسم الزياني: قصة ابتلاء أم ملحمة التأهيل للكتابة؟"، مجلة سميائيات, ع٢. مارس٢٠٠٩م.

(٩) علال الغازي، بلوغ المرام بالرحلة إلى بيت الله الحرام - لعبد المجيد المنالي الزبادي –تقديم وتحقيق, ماجستير, جامعة محمد الخامس- المغرب, ١٩٩٦م, ص ٢٥, ٦٦.

(١٠) العياشي: ماء الموائد , ص ٩٣؛ أحمد بن ناصر الدرعي : الرحلة الناصرية , ص ٤٢٥؛ فؤاد الماوي , العلاقات الاقتصادية والمالية بين مصر والحجاز من الفتح العثماني حتى الاحتلال الفرنسي, الكويت, ١٤٠١هـ/ ١٩٨٠م. , ص ٣٦..

(١١) صالح درادكة :طريق الحج الشامي، ص١٨١.

(١٢) أحمد الرشيدي: حسن الصفا والابتهاج – ص ٤٥؛ الجزيري : المصدر السابق – جـ٢ – ص ٨٣٧، ١٥٥٩ – ١٥٦٠، ١٥٦٢، ١٥٦٦، ١٥٦٨، ١٥٧١؛ العياشي : المصدر السابق – ص ٤٣ – ٤٥، ١٢٧؛ النابلسي : المصدر السابق – ص ١١٥، ٤٣٩ – ٤٤٠.؛ أبو القاسم الزياني : الترجمانة الكبرى في أخبار المعمور برًا وبحرًا – ص ٢٢٩؛ أحمد بن ناصر الدرعي : المصدر السابق – ص ٤٥١، ٤٥٥ – ٤٥٨.

(١٣) المنالي الزبادي: بلوغ المرام – ص ٥٤٣ – ٥٤٤، ٥٤٦؛ محمد بن عبد السلام الناصري الدرعي : المصدر السابق – ص ١١٥ – ١١٦، ١١٩ – ١٢٣،١٤٧،

١٥٥ – ١٥٦؛ محمد لبيب البتنوني : المصدر السابق – ص ١٧٤ – ١٧٦، ١٨٦، ٢٤١ – ٢٤٣؛ إبراهيم رفعت : المصدر السابق – جـ٢ – ص ١٤٢ – ١٤٣، ١٩٩ – ٢٠٣؛ محمد طاهر الكردي : المرجع السابق – جـ٢ – ص ٢٤٢ – ٢٤٣، ٢٤٥ – ٢٤٦؛ عبد الكريم كريم, المرجع السابق – ص ١٩٠؛ حليم جريس، يوسف خليل، إجلال السباعي : المرجع السابق – ص ١٢.

(١٤) محمد بن محمد حسن شُرَّاب، المعالم الأثيرة في السنة والسيرة, دمشق: دار القلم، الدار الشامية,١٤١١هـ,ص٢٢٢.

(١٥) جوزيف بتس، رحلة الحاج يوسف إلى مصر ومكة والمدينة ١٦٨٠م، ترجمة عبد الرحمن عبد الله الشيخ، الهيئة العامة للكتاب (القاهرة)، ١٩٩٥م.، ص ٦٢ ؛ سي-سنوك هيرجرونجي , مكة في اواخر القرن ١٩م ,ترجمة صبري محمد حسن ,ط١,المشروع القومي للترجمة(القاهرة)٢٠٠٧م,ص١٦٤؛ المراد آبادي، رفيع الدين، الرحلة الهندية إلى الجزيرة العربية (١٢٠١هـ/ ١٧٨٩م)، ترجمة سمير عبد الحميد إبراهيم، ط١، المشروع القومي للترجمة، (القاهرة)، ٢٠٠٤م ، ص ٨٠؛

(١٦) العياشي: المصدر السابق، ص ٤١، أحمد بن ناصر الدرعي: المصدر السابق، ص ٤٥٥، محمد بن عبد السلام الناصري الدرعي : رحلتا الدرعي – ص ١١٠.

(١٧) النابلسي: الحقيقة والمجاز، ص ٤٣٩؛ إبراهيم رفعت: مرآة الحرمين – جـ٢ – ص ٢٠٣.

(١٨) العياشي: المصدر السابق، ص ٢٥، ١٥١، ١٦١، ١٦٣؛ أحمد بن ناصر الدرعي : المصدر السابق- ص ١٦١، ٤٢٧.

(١٩) عبد الكريم رافق، قافلة الحج الشامي وأهميتها في العهد العثماني، مجلة دراسات تاريخية، العدد ٦، ذو الحجة، تشرين أول، ١٩٨٠م، ص٥-٢٨.

[٢٠] بوكهارت، جون لويس، ترحال في الجزيرة العربية: يتضمن تاريخ مناطق الحجاز المقدسة عند المسلمين، ترجمة صبري محمد حسن، ط١، المشروع القومي للترجمة (القاهرة)، ٢٠٠٧م، ج١، ص١١, ١٠١, ١٠٥, ١٣٧.

[٢١] حول أمن القافلة وأحوال الحج، انظر: ابن كنّان، الحوادث، ص. ص ٧٢، ٩٢، ١٧٢، ٢٧، حيث يذكر أحوال الحج في مطلع كل سنة من حوادثه، وعن قافلة الحج الشامي جنوب دمشق في العهد العثماني، راجع دراسة إبراهيم الشرعة، "موقف القبائل البدوية من قافلة الحج في القرنيين السابع عشر والثامن عشر الميلاديين"، مجلة دراسات، العلوم الاجتماعية والإنسانية، الجامعة الأردنية، المجلد، ٢٩، العدد، ٢٠٠٢م. ص٣١٩-٣٤٧.

[٢٢] نوفان السواريه؛ محمد الطراونة" :منطقة الكرك والشوبك خلال الفترة ٩٣٤ ه / ١٥٢٧ م -١٠٣٣ ه /١٦٢٥ م :دراسة في أوضاعها الإدارية والاجتماعية والاقتصادية ."دراسات، العلوم الإنسانية والاجتماعية، المجلد ٢٩ ، العدد ١/ ٢٠٠٢ ، ص ١٤٤-١٤٥

[٢٣] الغزي، الكواكب السائرة، مجلد ٣، ص ١٤٠؛ محمد سالم الطراونة، تاريخ منطقة البلقاء ومعان والكرك ,وزارة الثقافة، عمان، ١٩٩٢ ، ص١٨٥.

[٢٤] عن أهمية قافلة الحج، انظر: ابن كنّان الصالحي، محمد بن عيسى (ت ١١٥٣هـ/ ١٧٤٠م)، المواكب الإسلامية والممالك الشامية، تحقيق: حكمت إسماعيل، وزارة الثقافة، دمشق، ج١، ص١٣٢

[٢٥] ابن كنّان، الحوادث اليومية من تاريخ أحد عشر وألف ومية، ط١، تحقيق: أكرم العلبي، دار الطباع، دمشق، ١٩٩٤م، ص٣٠

[٢٦] ابن كنّان، الحوادث، ص١١٤، ١١٥

(٢٧) حول خط سير القافلة وتطورها من العصر المملوكي وحتى فترة الدراسة، انظر: ابن فضل الله العمري، (ت ٧٤٩هـ/ ١٣٤١م)، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، معهد تاريخ العلوم الإسلامية، برلين، السفر الثاني، ١٩٢٨ ص٣٦. وقارن مع: ابن كنّان، المواكب، ج٢، ص١١٢. ايرينا سميلنسكايا، البنى الاقتصادية والاجتماعية في المشرق العربي على مشارف العصر الحديث، ترجمة: يوسف عطا الله، دار الفارابي، بيروت، ١٩٨٩م، ص١٧٩؛ وجان سوفاجيه، دمشق الشام لمحة تاريخية، ترجمة: فؤاد البستاني، بيروت، ١٩٣٦، ١٩٦٥م، ص١٠٢.

(٢٨) سجل ٣٧ (مخلفات) حجه ١٩٢، ص٧٣، ١٤ رجب ١١٣٢هـ/ ١٧١٩م. سجل ٦٨، (مخلفات) حجة ٥٤، ص٦٢، ٧ صفر ١١٢٤هـ/١٧٣١م.

(٢٩) محمد سعيد القاسمي (ت ١٢٨٣هـ/ ١٨٦٦م)، قاموس الصناعات الشامية، تحقيق وإضافة: ظافر القاسمي، دمشق، دار طلاس، ج١، ص١١٤، ١٥٦، ١٨٥؛ ج٢، ص ٣١٩.

(٣٠) المصدر نفسه، ج٢، ص٤٦٥

(٣١) المصدر نفسه، ح٢، ص٢٨٠

(٣٢) المصدر نفسه، ج٢، ص٣١٩، والعكام يستخدم بأجر معلوم ليقود الجمل الذي يسلمه إياه المقوّم ويتولى خدمة الركاب عليه.

(٣٣) القاسمي، قاموس، ج٢، ص٤٧٤، وهناك المهاترة والطباخون، وغيرهم

(٣٤) حول أمن القافلة وأحوال الحج، انظر: ابن كنّان، الحوادث، ص. ص ٧٢، ٩٢، ١٧٢، ٢٧، حيث يذكر أحوال الحج في مطلع كل سنة من حوادثه، وعن قافلة الحج الشامي جنوب دمشق في العهد العثماني، انظر دراسة إبراهيم الشرعة، "موقف القبائل البدوية من قافلة الحج في القرنيين السابع عشر والثامن عشر الميلاديين"، مجلة

دراسات، العلوم الاجتماعية والإنسانية، الجامعة الأردنية، المجلد، ٢٩، العدد، ٢٠٠٢م. ص٣١٩-٣٤٧.